علي بك الكبير

تأليف

محمد رفعت رمضان

ماجستير فى الآداب ودبلوم فى التربية

مدرس بالمعهد العالى للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

على باك الكبير

تأليف

محمد رفعت رمضان

ماجستير فى الآداب ودبلوم فى التربية

مدرس بالمعهد العالى للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

لو قص علينا المحدثون قصة صبي مسيحي اختطفه تجار الرقيق من بلاد اليونان من أحضان أبيه القسيس الارثوذكسي وباعوه في مصر بثمن بخس ، فاذا به يغدو في يوم من الأيام حاكما بأمره في مصر العثمانية ويقود جموع الحجاج إلى بيت الله الحرام لقلنا أنها من بنات الأفكار أو ثمرة الخيال . والواقع أنها قصة الكثيرين من حكام مصر في وقت من الأوقات ، انها حقيقة واقعة وكثير من الحقائق أغرب من الخيال وأمتع ، انها قصة علي بك الكبير . ضمنتها هذا الكتاب الذي أقدمه إلى حضرات القراء .

وهذه القصة نواة رسالة كنت قد تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول للحصول على درجة الماجستير في التاريخ ، ولما أقرت لجنة الامتحان هذا البحث فكرت في نشره لكي تعم فائدته لاسيما أنه يعالج فترة غامضة من تاريخ مصر والشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فيلقي الضوء على لون من ألوان الحكم المملوكي تحت السيادة العثمانية ويبين كيف استفحل نفوذ علي بك الكبير في مصر على حساب الدولة العثمانية الضعيفة ، ويوضح أثر ذلك في مرافق البلد السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الخارجية عندما تطلع إلى ضم الحجاز وشرع في غزو الشام بالتحالف مع صديقه ظاهر العمر . واختتمت البحث بمناقشة العوامل التي أدت إلى فشل الحركة وعودة مصر ترزح تحت عسف المماليك واطماع العثمانيين حتى دخلها نابليون بونابرت .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجه بالشكر إلى أستاذي الجليل حضرة صاحب السعادة محمد شفيق غربال بك على كريم إرشاده وسديد توجيهه ، كما أشكر حضرات من يسروا لي طرق البحث في دار المحفوظات بالقلعة ووزارة الأوقاف بالقاهرة وإدارة حفظ الآثار العربية ودور الكتب المختلفة .

والله ولي التوفيق ؟

المؤلف

القاهرة في ١٥/٣/١٩٥٠

مقدمة

فى نشأة البيوت المملوكية

استعملنا كلمة (ثورة) فى التعبير عن حركة على بك ولا نقصد منها معناها المرسل كاستعمالها فى (الثورة الفرنسية) مثلا فهى لم تستتبع تغييرات أساسية وانما قصدنا منها معناها الخاص الذى يمكن أن نطلقه على الحركات المملوكية فى مصر فى أبان القرن الثامن عشر على وجه الخصوص . يعبر عنها مؤرخو الفرنجة بكلمة (عصيان Revolt) لأن هذه الحوادث فى نظرهم خرق للنظام الموضوع وخروج على الوضع الذى يجب أن يكون . ونحن لهذا الأمر بالذات استعملنا كلمة (ثورة) من باب التجوز .

* * *

ولكى ندرس (ثورة على بك) ينبغى لنا أن نناقش مسألتين : تدفعنا الأولى إلى أن نلقى نظرة شاملة على العالم العثمانى فى أبان تلك الثورة فنجدة يموج بحركات مماثلة ، أبرزها حركات ظاهر العمر فى فلسطين ، والاشراف الهواشم فى مكة ، والاكراد فى شمال العراق والشام ، والأغوات الحكام فى مدن الأناضول وموانيه ، كما نجد ثورات أخرى أوسع نطاقا فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والأفلاق والبغدان .

ونلاحظ أن هذه الثورات يمكن تصنيفها فتدخل تحت قسمين : قسم يشمل حركات الشرق العثمانى المسلم يثيرها فرد أو جماعة ، والثانى يشمل حركات القسم الأوربى المسيحى . وثورات هذا القسم الأخير كانت حركات انفصالية بعثتها الروح القومية والدينية وغذتها الدعاية الروسية فلم ينس أهله أنهم ورثة الحضارة البيزنطية المسيحية وفى الوقت نفسه (رعية) سلطان مسلم حل بارضهم واتخذها

قاعدة للتوسع الاقليمى . فوصفنا لهذه الحركات بانها حركات انفصالية أو استقلالية لاغبار عليه ويقربنا كثيراً من غرضها الحقيقى (١) .

أما حركات الشرق العثمانى فكانت تهدف إلى اغراض أخرى ولكنها ليست الاستقلال أو الانفصال بحال من الأحوال : فولاياتة كانت موطن الحضارة الاسلامية وتكشفت لشعوبها منذ القرن الحادى عشر الميلادى اطماع الغرب السياسية بعد أن تدرع باسم الدين وتقدم فى ظل الصليب مستغلا تفكك وتنافس العالم الاسلامى الذى لم ينعم بالوحدة منذ ضعفت قبضة العباسيين حتى أصابه شىء من حسن الحظ بالاتحاد فى صورة ما وبالقدر الذى مكنه من طرد المستعمرين والغزاة الصليبيين فحمى الدين وحافظ على تراثة من الحضارة الإسلامية ولكنه مالبث أن تفكك وتخاذل .

ثم استهل القرن السادس عشر وبدأت موجة الفتوح العثمانية فى الشرق : استجابت الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز (١٥١٧) ثم العراق (١٥٣٤) . وفى هذا المحيط الواسع لم تحاول الدولة العثمانية أن تقيم سلطانها على قواعد من الاستعمار المنتج ، ولم تحاول أن تصبغ أهل هذه الولايات بالصبغة العثمانية أو تربطهم برباط الحضارة العثمانية أو توجد بينهم شيئا من التعاون المتبادل أولونا من النشاط المشترك بل اتبعت نفس المبدأ الذى سارت عليه فى كل أملاكها تقريبا : أن تترك العناصر الأصلية فى حكم البلاد المفتوحة مع تعديلها التعديل الذى يضمن لها بقاء السيادة والسيطرة وتقاضى ثمن هذه السيادة والسيطرة — لم تحاول أن تمس العقائد الدينية والمدنية أو التقاليد القومية وسارت الشعوب على ماالفته لايضيرها إلا تعسف فى الجباية أحيانا ومفاسد الحكم والادارة وعناصر هذا الفساد فى أغلبها موروثة عن العصر السابق وليست كلها مستحدثة فى العصر العثمانى .

---

(١) Toynbee : Turkey. pp. 16-18

ورغم أن الدولة العثمانية لم تحاول أن تنظم هذه الولايات فى عقد استعمارى منسجم فثمة رابطة كانت قد بدأت فى القرن السابع الميلادى وظلت تقوى مع الزمن، تلك هى الديانة والحضارة الإسلامية التى كانت تربط بين كل ولاية وجارتها وبينها وبين الدولة العثمانية نفسها . أما الحضارة الإسلامية فقد تأثرت بالبيئة واتخذت نظم الحكم فى كل ولاية لونا محليا ، وأما الديانة فقد أوجدت عن طريق العاطفة الدينية نوعا من التماسك بين الدولة وولاياتها ، تقوى العاطفة ويزيد التماسك كلما بدت نواجذ الاطماع الغربية المسيحية فالشرق كان — ولا يزال — يخشى أطماع الغرب . والدولة العثمانية كانت فى نظر كل ولايه من ولاياته درعا يقيها شر تلك الأطماع ويضمن لها فى ظل الدولة العثمانية المسلمة نوعا من الحرية فى مزاولة تقاليدها الموروثة وأن تحيا حياة أفضل — فى نظرها على الأقل — مما لو اكتنفتها دولة أوروبية مسيحية .

ونظرة أهل هذه الولايات إلى الدولة العثمانية على هذا الاعتبار نظرتهم إلى البطل يحمى الذمار ويدفع العدوان ويتقاضى لذلك جعلا مع الاعتراف له بالسيادة . وكما كانت القسطنطينية فى عصرها البيزنطى المسيحى حتى ١٤٥٣ تقف حاجزا يحول بين الإسلام الناشىء الفتى وبين أوروبا المسيحية المنحلة ، أصبحت فى عصرها الإسلامى وثوبها العثمانى درعا يقى الشرق الإسلامى المتداعى أطماع الدول الأوروبية الفتية . هكذا ارتبطت صوالح الولايات العثمانية فى الشرق الإسلامى مع الدول الحاكمة برباط الدين والمصلحة السياسية . وهذا الارتباط كان يمنع أى ولاية من القيام بأية حركة انفصالية حتى لا تدفع بنفسها إلى مخالب أقوى وبلاء أعظم

فنظرتنا إلى الأحداث الداخلية فى هذه الولايات ينبغى ألا تؤول هذا التأويل وينبغى أن تحمل على محمل آخر . تلك الأحداث فى جملتها محاولات فرد أو جماعة للتسلط على شئون الحكم والإدارة فى الولاية مع بقائها تابعة للدولة العثمانية حتى تحتمى بها من أطماع الغرب .

---

(١) Toynbee : Western Question in Greece & Turkey. PP. 30-33

وكثيراً ما نلاحظ ونحن نستعرض تلك الحركات حدوثها فى عدة ولايات فى وقت واحد أو فترات متقاربة وخاصة وقت انشغال الدولة العثمانية فى متاعب خارجية سياسية كانت أو حربية . والحق أن التقارب أو التوافق الزمنى لاينبغى أن يعزز الرأى الذى سفهناه وإنما نعلل ذلك بأن متاعب الدولة الخارجية كانت فى نظر القائمين بأمر هذه الحركات فرصا لاتعوض فى سبيل تحقيق أغراضهم الخاصة ولم يكونوا يتعدون ذلك إلى حد التعاون مع العدو الأوربى للدولة بل أن هذا التعاون كان فى عرف أهل الولايات (خيانة وكفرا) للدولة العلية لا ينبغى اتخاذه سلاحا لتحقيق الأطماع الخاصة . وكانت هذه إحدى التهم الشنيعة التى تغذى المهاترات بين المتنافسين فى الولاية العثمانية كما كان الحال سنة ١٧٧٢ بين على بك الكبير فى مصر ومنافسه أبو الذهب الذى كان يندد بعلاقة على بك بالروسيا « فالتنافس على الحكم » كلمة السر التى تقودنا إلى فهم معظم حركات الشرق العثمانى فى ذلك الحين .

* * *

ويدفعنا ذلك إلى مناقشة المسألة الثانية فينقلنا إلى ميدان أكثر تخصصا وتحديداً من ميدان الدولة العثمانية عموما وهو (مصر العثمانية) ويجرنا إلى الكلام عن نظام الحكم العثمانى فى مصر، وقد ناقشه المؤرخون ودرسوه وأعجب بعضهم « بحكمة السلطان سليم » التى جعلته يوزع السلطة فى مصر بين ثلاث هيئات متوازنة يضمن لها تنازعها وتنافسها بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية . والواقع أن هذا الرأى أصبح لا يستقيم مع دراسة وثائق ذلك العصر التى تظهر لنا أن سليما الأول لم يفعل فى مصر إلا ما فعله فى غيرها من الولايات والا ما يتمشى مع مبدأ العثمانيين فى الابقاء على أنظمة الحكم فى البلاد المفتوحة بعد تعديلها تعديلا يكفل بقاء السيادة العثمانية . كان يمثل السلطان العثمانى فى القاهرة عاصمة الولاية المصرية (باشا عثمانى) حل محل (السلطان المملوكى) وكذلك كان الحال فى جدة وفى دمشق وطرابلس وحلب وصيدا ، فقد وجد باشوات عثمانيون حلوا محل

الحكام المماليك السابقين ، وكان بمصر (أوجاقات عثمانية) حلت محل (الجيش المملوكى) عملها الأساسى الدفاع عن مصر وامتد نشاطها إلى بعض أعمال الإدارة الداخلية أو بعبارة أدق المساعدة فى تنفيذ الأوامر الادارية من جمع الميرى وحفظ الأمن وحراسة قوافل الحجاج . . الخ . ومثل هذه الفرق كان موجوداً بدرجات متفاوتة من حيث الكثرة والقلة فى كل ولاية من الولايات وبنفس الاختصاصات تقريباً وهذا أمر طبيعى . واستدعى الحال اشراك اغواتهم فى الإدارة العليا لمصر عن طريق الديوانين وهذا أمر طبيعى أيضاً فهم العنصر الحاكم ، والدولة العثمانية كانت تعتمد فى ذلك الوقت على الجيش والقوة الحربية قبل أى شىء آخر .

وإعطاء حكومات الأقاليم (الصنجقيات والكاشفيات) لبكوات المماليك دليل قوى على الرأى الذى قلنا به : كانوا حكام الأقاليم فى عهد السلطنة المملوكية وتمشيا مع التقاليد العثمانية ينبغى بقاؤهم حكاما على الصنجقيات والكشوفيات . فمشكلة الحكم فى مصر العثمانية إنما حلت بوضع الأمور كما كانت على قدر الإمكان وجاء ذلك متمشيا مع مبدأ العثمانيين . ففيما عدا (الخزنة) السنوية والخطبة والسكة وملكية السلطان نظريا للأرض بقيت مصر تحيا الحياة التى كانت تحياها فى عصر سلاطين المماليك . بل إن العنصر المملوكى الحاكم فى ذلك العصر كان لا يزال مسيطراً على الإدارة المحلية فى العصر العثمانى .

والعنصر المملوكى ليس عنصراً أصيلا فى حكم مصر ولكنه على كل حال أقدم من العنصر العثمانى ، والسيادة المملوكية على مصر كانت أسبق من السيادة العثمانية بما يزيد على قرنين ونصف من الزمان . ولما حلت هذه الأخيرة سنة ١٥١٧ استبقت السيطرة المملوكية على الأقاليم .

والتطور الذى حدث فى نظم الحكم فى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر — وهو تطور فى مدى سلطة الحكام وليس فى نوع اختصاصاتهم — إنما نشا

عن ضعف الدولة العثمانية نفسها وفساد الأداة الحكومية والحربية فيها (١) . وانعكس هذا الفساد فى الولايات وتمثل فى ضعف شخصية الولاة العثمانيين وسوء الإدارة عموما . كما أنه أوجد الفرصة الذهبية للمماليك فى مصر كى يحوزوا السلطة التى كانت بيد الوالى العثمانى الضعيف . وفى غفلة من هؤلاء الولاة الضعاف ظهرت عصبيات مملوكية قوية هددت سلطة الوالى العثمانى تهديداً خطيراً . وتنافست فيما بينها وكان تنافسها خطراً على الأمن الداخلى لأنها كانت مسلحة وكان من حقها المقرر أن تتسلح .

يعبر عنها مؤرخو الأجانب باسم (عصابات أو جماعات) ويسميهم مؤرخو العصر وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (البيوت المملوكية) فأيها أقرب إلى الصواب ؟ هل كانت الرابطة التى تجمع بين كل فريق منهم روح العصابة وهى استعمال العنف فى تحقيق الاطماع والحصول على الأسلاب أو كانت تجمعهم رابطة الأسرة وهى رابطة التضامن والتساند والاتحاد على السراء والضراء فى سبيل مجد رب الأسرة والمنافع المتبادلة . وبعبارة أخرى : هل كان (على بك الكبير) زعيم عصابة مملوكية أو كان صاحب بيت مملوكى ؟ حقا كانت تجد ظروف يقوم فيها المماليك بضروب النهب والسلب بما لا يفترق عن أعمال العصابات المنظمة وغير المنظمة ولكن هذا كان من باب التهور والتمادى فى الانتقام . وإنما كانت تنتظم المماليك قواعد ثابتة وتقاليد راسخة وتربطهم وشائج لا تنفصم . والتربية المملوكية التى أنجبت سلاطين دولتى المماليك كانت — مع تعديل طفيف — نفس التربية التى أنجبت بكوات المماليك فى العصر العثمانى : اهتمام بالروح والبدن وتدريب على الرياضة والحرب وتمرين على استخدام الخيل والسلاح . ووجود هذه البيوت كان خطراً على سلطة الوالى العثمانى فى مصر لا على الدولة العثمانية نفسها . ولم يكن يحد من هذا الخطر سوى تعدد البكوات وتنافسهم على المناصب فيما بينهم .

---

(١) جودت : تاريخ جودت ج ١ ص ١٠٠ — ١١٠) ترجمة الدنا عن التركية) .

نشأة البيوت المملوكية

وتتبع نشأة البيوت المملوكية يعود بنا إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى عند ما تأسست دولة المماليك الأولى ووضعت التقاليد المملوكية التى ما زالت تنحدر من عصر إلى عصر وطاولت بقاياها الزمن حتى أوائل القرن التاسع عشر . وهى تتضح إذا ناقشنا كلمة (مملوك) . فقد تعود مؤرخو مصر المملوكية أن يشرحوا تلك الكلمة على أساسين : أساسها (اللغوى) أى شخص فى يمين شخص آخر يملكه كما يملك السائمة . والأساس الثانى معناها (الاصطلاحى) بإطلاقها على (الارقاء) البيض الذكور من أسرى الحرب أو بالشراء من أسواق الرقيق ينشئون فى مصر وفق التقاليد المملوكية الخاصة . والواقع أن مدلول هذه الكلمة على هذا الوجه أو ذاك لا يصح إلا (عتبار ما كان) لأن الأمير عند ما كان يشترى مملوكه أو يحوزه عن طريق الأسر أو الهدية أو الاغتصاب إنما يبقيه ملك يمينه مدة تدريبه وتعليمه فقط ، حتى إذا ما بلغ سنا معينة — وكانت الثامنة عشرة فى أغلب الأحيان — « أعتقه وسمح له بإرخاء لحيته » وهذا أول حقوق المملوك المعتوق فى عرفهم . ولا يعد يربط الأمير المملوكى بمملوكه السابق سوى حق الولاء . ويبقى المملوك فى خدمة أستاذه مقيما على ولائه مهما علت مرتبة هذا المملوك ، ولا يأنف أن ينسب نفسه إلى سيده ويفخر بأصله المملوكى. وهذا النسب لا يأتى عن طريق صلة الدم وإنما عن طريق الحيازة السابقة والتبنى والعلاقة التى تربط بين الأمير ومماليكه وبين هؤلاء المماليك فيما بينهم أقرب ما تكون إلى رابطة الأسرة ، تقوم فى الحالة الأولى على علاقة التبعية السابقة والولاء المقيم ، وفى الثانية على رابطة (الخشداشية) أى الزمالة . فالأمير (أستاذ) مماليكه وصاحب ولائهم وهم (أتباعه ومماليكه وأهل بيته) . وكل واحد من هؤلاء المماليك (خشداش) الآخر اى زميله فى الرتبة [1] .

---

(١) الخشداش أو الخوشداش أو الخجداش أو الخوجداش — معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ومعناه الزميل فى الخدمة . والخشداشية فى إصطلاح عصر المماليك يعنى الأفراد الذين نشأوا عند أستاذ واحد .

وكلما أعتق الأستاذ مملوكا ، أصبح من حق هذا الأمير اقتناء مماليك آخرين ينتسبون كلهم إلى أستاذهم الأول ويتعصبون له . وهكذا يتكون البيت المملوكى . وقوة أى أمير من الأمراء إنما تكون بعدد مماليك بيته .

* * *

وكانت (فرقة المماليك البحرية) أول هيئة منظمة للمماليك عرفت فى مصر (١). ولكنها لم تكن بيتاً من البيوت المملوكية بالمعنى الدقيق . انما بدأت النشأة الأولى للبيوت المملوكية مع نشأة السلطة المملوكية نفسها ، وكان أبرزها بيت قلاوون الذى يمكن اعتباره نموذجا للبيوت المملوكية التى ستظهر تباعا فى خلال عصر المماليك ؛ ولكننا نلاحظ أن قوة سلاطين الدولة الأولى وانحصار السلطنة حوالى مائة عام فى بيت قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٩٠ م) خففت من غلواء العصبيات المملوكية ولم ترسم الحدود الفاصلة المميزة لها كما حدث فى دولة المماليك الثانية عند ما أصبح السلطان (كبير أمراء) أكثر منه (سلطانا) بما تحمله هذه الكلمة من معان ، فلا شبه ورائه ولا قداسة للعرش وانما القوة هى التى تقرر من يتولى ومن يدير دفة الأمور . أصبح كما يقولون (primus inter pares.) يختاره خشداشونه أو بعبارة أدق هو الذى يجبرهم على اختياره للعرش بقوة شخصيته وبقوة مماليكه ومهارته فى تصريف الأمور وسخائه فى بذل الوعود (٢) .

وإذ توفى السلطان وكانت تربد مماليكه رابطة المصلحة المشتركة ظلوا على اتحادهم وكونوا (بيتا) يعرف باسم أستاذهم السلطانى وإلا تفرقوا فى البيوت المملوكية الأخرى تحت لواء أساتذة آخرين . وهكذا ظهرت فى دولة المماليك الشمالية بيوت (الأشرفية والناصرية والمؤيدية . . . . وغيرها) يجمع كلا منها شعور بالذاتية المستقلة ويحركها عزم على الاحتفاظ بالنفوذ وكسب أكثر ما يمكن

---

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة — بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٧٢ — ٧٣ من مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٦ .

(٢) Lane- Poole : A History of Egypt in the Middle Ages .pp 325-7.

من الثروة، والقيام بمناورات وتكوين تحالفات توطىء العرش لأحد أمرائها . وقد أدى ذلك إلى تنافس ونزاع مستمر كان يصحبه دائما « قتال شوارع » فأوجد نوعا من الارهاب والفزع فى عاصمة القطر ، وفترات قلق لا يأمن فيها المصرى أو غيره على نفسه وماله .

نرى مما تقدم أن البيوت المملوكية نشأت مع العصر المملوكى نفسه لأنها محوره وعنصر دوامه . ولكن قوة سلاطين الدولة الأولى أخمدت شرور تلك العصبيات إلى حدما . وكان ضعف بعض سلاطين الدولة الثانية والتنافس المرير على عرش السلطنة السبب المباشر لظهورها ونشاطها فى عنف وقوة قاست منهما مصر كثيراً وأصبحت ميداناً لاستبداد الجند، المملوكى إلى أن بدأ العصر العثمانى ودالت دولة المماليك واختفت بيوتها بتفرق مماليكها(١) .

* * *

وورثت مصر العثمانية بعض التقاليد المملوكية فيما ورثت عن العصر المملوكى ولكن فى شكل أقل انسجاما، وصورة أكثر اضطرابا. وانحطت أهدافها وتواضعت أغراضها ، فبعد أن كان الأمراء يهدفون إلى عرش السلطنة أو نيابتها، أصبحوا يتنافسون ويتناحرون فى سبيل (شياخة البلد) و(امارة الحج) . وبعد أن كان السلطان المملوكى يؤلف قلوب مماليكه بالاقطاعات أصبح الأمير المملوكى لا يتورع أن يطلق مماليكه لنهب قصور منافسيه وسبى نسائهم وأولادهم وماعساه يقع تحت أيديهم غير مكترث لما يؤدى اليه هذا الأمر من فزع للأهالى وضيق وبطالة أو خسارة فى المال والأرواح .

وتميز العصر العثمانى فى مصر، وخاصة فى القرن الثامن عشر عندما ضعفت قبضة الوالى العثمانى ، بالتنافس الشديد بين البيوت المملوكية والمعارك الدموية بين أمراء البيت الواحد بحيث كان الاصل ينقسم إلى فروع والبيت المملوكى الواحد ينقسم على التوالى إلى بيوت متنافرة متنافسة تتحد حينا وتتنازع أحيانا .

---

(١) شفيق غربال . محمد على الكبير ص ١٣ — ١٥ .

البيوت المملوكية فى العصر العثمانى :

وقد حاول مؤرخ العصر العثمانى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن يبحث فى نشأة تلك البيوت وبدأ باشمل الفرق فى عصره وهما فرقتا (الفقارية والقاسمية) فاورد عن أصلهما روايتين : أما الأولى فتجعل بدء ظهورهما فى عصر السلطان سليم الأول وفى مدة إقامته بمصر على وجه التحديد (١٥١٧ م ٩٢٣ هـ) فتقص علينا كيف زار السلطان قصر الامير سودون واعجب بحكمة ولديه (قاسم وذى الفقار) وزاد اعجابه بهما لما ابدياه من ضروب الفروسية والشجاعة والاقدام فجعل ذا الفقار على رأس الفرسان العثمانيين وقاسما على رأس فرسان المماليك وأمرهما بتمثيل معركة حربية كادت تنقلب إلى ملحمة حقيقية ، فأمر السلطان بوقف القتال ولكن تولدت فى النفوس حزازات اتضحت فى تحزب المماليك حزبين ينتسب احدهما إلى ذى الفقار ، يميل إلى العثمانيين ويتخذ اللون الأبيض شعارا له . والآخر فريق القاسمية يميلون عن العثمانيين وشعارهم اللون الأحمر (١).

هذا ولم يرد أى ذكر أو إشارة إلى تلك الحادثة فى كتابات المعاصرين للفتح العثمانى كابن أياس وابن زنبل والأرجح أنها قصة خيالية متواترة حاولت أن ترجع انقسام المماليك وعداوة بعضهم للعثمانيين إلى أصول تاريخية . والواقع أن أول انقسام كبير للمماليك فى مصر العثمانية كان إلى (قاسمية وفقارية) حقيقة ولكنه لم يبدأ سنة ١٥١٧ وهى سنة الفتح وإنما سنة (١٧٠٧ م — ١١١٩ هـ) على أثر النزاع بين (قاسم بك الدفتردار) ومنافسه (ذى الفقار بك الكبير) أمير الحج على نحو ماجاءت به الرواية الثانية .

ونحن إذا أردنا أن نقف على سر هذا الانقسام والانقسامات التالية فلا ينبغى أن نلمسه فى شعور المماليك العدائى نحو العثمانيين كما جاء فى الرواية الأولى وإنما فى تنافس المماليك على النفوذ وتنازع بكواتهم على المناصب الرئيسية فى

(١) الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٢١ — ٢٣ .

الحكومة . كما أننا لانتنظر حدوثه فى القرن السادس عشر عندما كانت الدولة فى أوج مجدها وعنفوان قوتها فتستطيع فى هذه الحالة أن تقضى على كل ماينتقص من هيبتها أو يهدد نفوذ ممثليها فى مصر ، وإنما نتوقع حدوثه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عند ما بدا ضعف الدولة واضحا فى ميادين السياسة والحرب سواء فى أوربا أو فى ولاياتها وخاصة مصر حيث أصبح النفوذ الحكومى مطمعا للبكوات المتنافسين ونهبا بينهم . ذلك لأن النزعة التى كانت تسير بكوات المماليك فى مصر العثمانية لم تكن نزعة انفصالية وإنما هى الأثرة وحب السلطنة فان تربيتهم واحلامهم وأعمالهم كانت كلها موجهة نحو ذلك الغرض . وكانو أبدا فى نضال ونزاع ، لايكاد الواحد منهم يبرز بين خشداشينه حتى يطمع فى أن يكون صاحب منصب ، فيعمد إلى الدسيسة والخداع حينا وإلى القتال حينا آخر حتى يقضى على شيخ البلد الموجود مثلا أو ينهزم فيفر مع خاصة مماليكه إلى الصعيد أو الشام أو بلاد المغرب حيث يلم شعث (مماليكه) ويجمع حوله (المنافى) ممن يحقدون مثله على من بيده النفوذ ويستعين (بالمرتزقة) من المغاربة أو العربان أو متاوله الشام أو دروز لبنان . وقد يقتل ويذهب ضحية اطماعه فيتولى رياسة مماليكه (ابنه أو خزنداره) مثلا (فيفتح بيت ابيه وأستاذه) . وهكذا يبدأ تكوين البيت المملوكى الجديد . وبمجرد وصولهم إلى المناصب تتولد اطماع جديدة قد تؤدى إلى انقسام جديد . وهم فى كل ذلك لايراعون الا ولا ذمة ولا يقيمون أى اعتبار للتحالف أو الزمالة فقد يكون شيخ البلد الذى يهاجمونه حليفهم السابق الذى تعاقدوا معه على الوفاء وقد يكون خشداشهم أى زميلهم الذى طالما حاربوا الى جانبه تحت لواء أستاذهم المشترك .

يتضح مما تقدم أن العاملين الأساسيين اللذين أديا إلى ظهور تلك البيوت — زيادة على الأسباب التى تقدمت فى عصر السلطنة المملوكية — هما ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حفظ هيبتها فى مصر . بحيث أصبح فى استطاعة بكوات المماليك أن يستحوذوا على نفوذ كامل فى المناصب الرئيسية المقصورة عليهم

واهمها منصب (شيخ البلد وأمير الحج والدفتردار) بالقاهرة (والصنجقيات والكاشفيات) فى الأقاليم . وثانيهما تنافس بكوات المماليك فى سبيل شغل هذه المناصب بأنفسهم أو باتباعهم .

يقول الجبرتى : (واستهل القرن الثانى عشر (الهجرى) وأمراء مصر فقارية وقاسمية[١]) ومن التناقس بين هاتين الفرقتين ستنشأ البيوت المملوكية التى ملأ نضالها تاريخ العصر بثورات محلية منظمة تحدث عنها المؤرخون باسم (الفوضى المملوكية) .

فمن (القاسمية) أنحدر بيت الإيوازية وأبى شنب . ومن (الفقارية) نشأت بيوت بلفية ورضوان والصابونجى والخشاب والقطامشة والدمايطة والجلفية والقازدغلية والابراهيمية والعلوية والمحمدية [٢] . ولعل من الطريف أن نصادف بيوتا أخرى مملوكية ولكنها لا تنتسب إلى أحد الأمراء وانما إلى أحد السراة أو الاعيان المصريين . (كجماعة الفلاح) و (بيت الشرايبى[٣]) .

وقد حدث بين هذه الفرق والبيوت خليط معقد من التنافس والمنازعات انتهى بتفوق (بيت القازدغلى) وهو ينتسب إلى الأمير مصطفى كتخدا الكبير القازدغلى الذى كان سراجا عند الأمير حسن أغا بلفية الفقارى أستاذ ذلك البيت

---

(١) الجبرتى . ج ١ ص ٢٣

(٢) تجد بيانا وافيا بأصول هذه البيوت وما حدث بينها فى الجبرتى ج ١ ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) جماعة الفلاح أستاذهم الحاج صالح الفلاح من قرية الراهب بالمنوفية (١١٦٧ هـ) تربى بمنزل على كتخدا الجلفى « ولم يزل ينتقل فى الأطوار حتى صار من أرباب الأموال واشترى المماليك والعبيد والجوارى — يزوجهم من بعضهم ويشترى لهم الدور والإيراد ويدخلهم الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لارباب الحل والعقد والمتكلمين وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة كتخدا آت واختياريه وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشيه ، وصار لهم اتباع ومماليك . » (الجبرتى جـ ١ ص ١٩٠) أما بيت الشرايبى فجدهم الحاج محمد الشرايبى من كبار التجار بالازبكية بيتهم بيت مجد وفخر وعز ومماليكهم من أعيان مصر وكان لهم مكتبة مبذولة للخاص والعام ويتردد على منزلهم العلماء والفضلاء وكانت لاسرهم تقاليد خاصة . (الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٤) .